الأعمال الشعرية الكاملة لعبد العزيز الرفاعي.. ظلال وأغصان

بقلم: د. عائض الردادي
السعودية

كان عبدالعزيز الرفاعي زاهداً في نشر شعره، ضنيناً بإنشاده حتى لأصدقائه، وإن كان قد نشر شيئاً منه باسمه الصريح، وآخر بتوقيع شاعر الأغصان، لكن هذا التردد في جمع الشعر في ديوان رافقه طول حياته عدا نشره لقليل منه في ديوان (ظلال ولا أغصان) في آخر حياته (عام ١٤١٣هـ) أما الجزء الأكبر الذي لم ير النور فهو ما زواه منه، وهو ما عناه بالأغصان، ولمح له في مقدمة ظلال ولا أغصان بقوله: «إنه مما ألف الناس من العواطف والأحاسيس». كما قال عن الجزء الذي نشره وهو الظلال: «لن أتواضع فأقول: إنه ليس شعراً، ولن أدعي أنه شعر ولكنه عمري».

ولأن الشعر عمر الرفاعي فقد جمعت كل شعره (ما نشره وما لم ينشره) من مصادره وسميته «الظلال والأغصان»، فكان هذا الديوان الذي احترمت فيه ذوق الشاعر، فصورت القسم الأول منه - وهو الظلال - وأبقيته على ترتيبه له، أما القسم الثاني وهو الأغصان فتم ترتيبه حسب التاريخ ليكون عمراً للشاعر.

يقع الديوان المجموع في ٣٩٤ صفحة، وقد أتممت جمعه وترتيبه وتحقيقه وأشرفت على صفه آلياً، ومراجعته وأسلمته لدار الرفاعي في ١٤٢١/٣/١٧هـ لتتولى طباعته، ولم يطبع حتى تاريخه لظروف لدى الدار، وكنت قد بدأت في عملي فيه في ١٤١٨/١٠/٢٢هـ.

وقد تحريت الدقة في تحقيق الشعر وعرضت بعضه على بعض أصدقائه كالأستاذ عبدالعزيز السالم، والدكتور عبدالقدوس أبو صالح، والدكتور حيدر الغدير وغيرهم، واستأنست برأيهم في قصائد غزلية لم ينشرها الشاعر ومدى الحرج في نشرها، فأشاروا بنشرها لأنها خطرات شاعر، والشعراء يقولون مالا يفعلون، والرفاعي معروف عنه الصلاح والعفاف.

أما الدكتور أحمد الخاني فقد دفعت إليه التجربة الطباعية الأخيرة وراجع الديوان كله وأعطاني ملحوظات استفدت منها.

ما نشره الشاعر

وجدت بخط الرفاعي فيما كتبه لأحد اللقاءات الصحفية أنه حاول النظم بعد العاشرة بقليل، وأنه في سنوات دراسته في المعهد العلمي السعودي في مكة المكرمة أخذ يقول شيئاً تصح قراءته[١]، وأنه حاول نظم مسرحية شعرية عن (الزباء) مقلداً مسرحيات شوقي ثم انصرف عنها[٢]، وأنه نشر بعض النفثات، وقال ما كرره في كثير من اللقاءات الصحفية وفي لقاءات المجالس من أنه ليس بينها ما يصح أن يسمى شعراً، وقد كتب ذلك في ١٤٠٧/٢/٢٧هـ.

وهو حين يقول ذلك إنما يقوله من باب التواضع الذي عُرف به، فهو يقلل من قيمة أعماله كلها ليس قولاً فحسب؛ بل كتابة في كتبه ومقالاته يقول عبدالله القرعاوي عن هذه الظاهرة: «فقيد الأدب الراحل عبدالعزيز الرفاعي تتميز شخصيته بمميزات يندر وجودها في كثير من الأدباء أو الشعراء، فالراحل الغالي كان شخصية شاملة، يتمتع بالخلق الرفيع، والأدب الجم، حتى يصل هذا الأدب إلى إنكار كل أعماله، مع ما تتمتع به من إنجازات ولكنه تواضع العلماء»[٣].

وقد أشار القرعاوي في مقاله السابق إلى أنه كان ينشر شعره تحت اسم مستعار فقد قال: «كان يخفي شاعريته وراء اسم مستعار، استمر في إخفائه منذ أكثر من أربعين عاماً»[٤].

وهذا التردد في نشر شعره وإلقائه استمر مرافقاً له طوال حياته، وقد أقدم في آخر أيامه على إصدار بعض شعره في ديوان صغير سماه «ظلال ولا أغصان» ومما قاله في مقدمة هذا الديوان: «لن أتواضع فأقول: إنه ليس شعراً، ولن أدعي أنه شعر ولكنه عمري[٥]، ويمضي في الاعتذار عن إصدار الديوان وكأنه ارتكب خطأ بإصداره فيقول: «وما جمعت من هذه الكلمات فقدمته لقرائي اليوم بعد تردد لم يطل أكثر من ثلاثين عاماً، إنما هو شطر من ذلك العمر التهويمي الذي عشته»[٦].

وقد أصدر الديوان المذكور في (١٥٧) صفحة من الحجم الصغير، عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، «أما لِمَ حمل هذا الديوان عنوانَ «ظلال ولا أغصان» فذلك راجع إلى أن هذا الشيء الذي رأى النور بعد ثلاثين عاماً هو جزء من شعر الشاعر أو بتعبير آخر هو الظلال أما الأغصان (وهي الجزء المتبقي) فقد آثر الشاعر أن يزويها، وألا ترى النور، وهو يعطي بصيصاً من مضمونها في المقدمة حين قال: «إن

ذلك الشطر الذي أسدلت عليه الستار لا يعدو أن يكون مما ألف الناس من العواطف والأحاسيس بل هو مما أحبوا من عهد امرئ القيس إلى عهد علي محمود طه»[٧].

ولابد من الإشارة إلى أن تلك الأغصان التي أعرض الشاعر عن نشرها ليست كلها مما أشار إليه، فهناك ما لا يدخل فيما ذكره، كما يتضح من شعره الذي جمعناه، ومنه قصيدة (السلام عليك) في المديح النبوي، وقد أعدها للطباعة وشرحها وصححها ولكنها لم تصدر إلا بعد وفاته، وقد كتب عليها (من ديواني ٢).

الظلال والأغصان

قسمنا ديوان الرفاعي الذي ضم ما وجدناه من شعره إلى قسمين:

القسم الأول:

ما نشره الشاعر وهو قصيدة (السلام عليك) وديوان (ظلال ولا أغصان)، وكان قد أصدر قبل ذلك قصيدة (من يوميات مئذنة مكية) عام

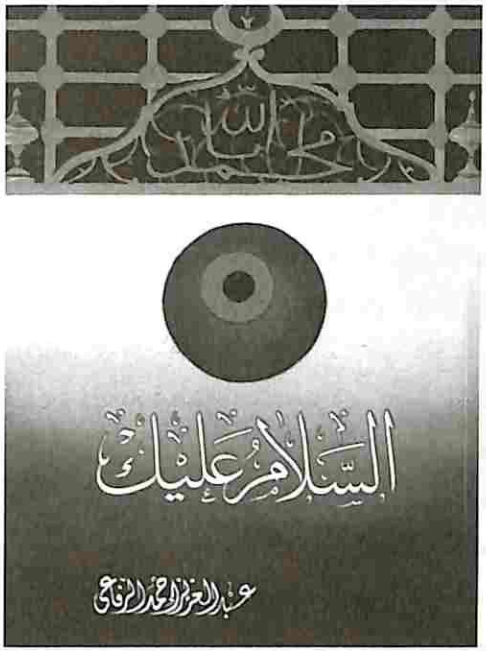

١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ولكنه ضمنها ديوان (ظلال ولا أغصان) عندمانشره عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، وقد أعدنا طباعة هذا القسم - مصوراً - كما نشره الشاعر، ليضم الديوان المجموع (الظلال والأغصان) كل ما عثرنا عليه من شعره.

القسم الثاني:

هو الأغصان، وهو ما جمعناه من شعر الشاعر الذي لم ينشر في ديوان، وإن كان بعضه قد نشر في الصحف والمجلات (وأشرنا لذلك في الهامش عند التعليق على القصائد)، واستوحينا هذا الاسم (الأغصان) مما كتبه الشاعر في تقديمه لديوان (ظلال ولا أغصان) الذي سبق نصه، ومن اسمه المستعار الذي كان ينشر تحته شعره وهو شاعر الأغصان، وسنتحدث في السطور التالية عن عملنا في جمع هذا الشعر وترتيبه وتحقيقه.

جمع الشعر

عندما أرادت دار الرفاعي إصدار ديوان الشاعر استعانت بالدكتور محمد أبوبكر حميد الذي شكا إلي أنه استعان بأحد الإخوة فأعطاه الملفات ليجمع الشعر ويصححه، ولكنه أي المصحح ليست لديه الخبرة بالشعر، فحذف أو غير أو ضبط القصائد من غير دراية مما شوه الشعر، ولم يرتبه أو يتخذ منهجاً في ذلك، بل طبع كل قصيدة منفردة، وأحياناً قسم القصيدة إلى قصيدتين، والأهم من كل ذلك أنه في بعض الأحيان عدل على أصول القصائد مما أضاف عبئاً وصعوبة في جمع الديوان وتصحيحه.

ثم أعطت دار الرفاعي ذلك الصنيع للأخ علي بن إدريس بن علي بن عثمان، فبذل جهداً مشكوراً في تعديل أخطاء المصحح وصحح ما أمكنه تصحيحه، ولكن تلك القصائد لم تكن شاملة لكل الشعر من جهة، ومن جهة أخرى شوهها المصحح الأول تشويهاً كبيراً، يحتاج إلى جهد كبير لإزالة ذلك التشويه.

ولهذا وجدت أن الأفضل لي أن أبدأ بداية جديدة فعدت لجميع المصادر التي سأذكرها فيما بعد، وجمعت منها كل الشعر، سواء ما سبق طباعته مما شوهه المصحح الأول، وما لم

يسبق جمعه، وهو كثير، وبعد أن تأكدت بنفسي من نسبة الشعر للشاعر، عملت الآتي:

- استبعدت أصول القصائد التي نشرها الشاعر في حياته اكتفاء بنشره لها في ديوان (السلام عليك) وديوان (ظلال ولا أغصان) الذي أبقيته كما رتبه الشاعر، وبالاسم الذي وضعه له وجعلته القسم الأول من الديوان وأسميته (الظلال).
- وجدت له بعض قصائد عامية، وأزجال هي أقرب للتندر والفكاهة، لم أضمنها هذا الديوان، وهي موجودة مصنفة في أصول الديوان التي رتبتها بعد تصنيفها إلى:
  - ما نشره في حياته.
  - وما قاله بالعامية.
  - وما وجه إليه.
  - وما لم ينشر في ديوان من قبل، وأسلمت الملف لدار الرفاعي للنشر.
- أما الشعر الموجه إليه فما ردَّ عليه أو عارضه نشرته ونشرت رد الشاعر عليه، وما سوى ذلك جمعته ووضعته مع أصول الديوان ليستفيد منه من رغب نشر ذلك النوع من الشعر.
- رتبت شعر الشاعر ترتيباً تاريخياً، حسب ما سيفصل في ترتيب الديوان فيما بعد.

مصادر الشعر

اعتمدت في جمع شعر الرفاعي على عدة مصادر؛ توثيقاً له، وقد توجد القصيدة في أكثر من مصدر، وهي:

أولاً - كراسة قديمة:

في أولها معلومات عن الهندسة وتمارين هندسية، مما يدل على أنها من كراريسه عندما كان طالباً في الثانوية، ولم أجد بها ما يدل على تاريخ نسخ القصائد الموجودة بها، ولكنه ذيل كل قصيدة بتاريخها وبمكان إنشائها وقد صنف فيه القصائد، ووضع كل مجموعة منها تحت عنوان على النحو التالي:

١ - الغصن: ووضع فيه قصيدة: إلى الغصن الأسمر.

٢ - سمر وبيض: ووضع فيه قصائد: ما كان ضر، وكبد ضائعة، ودنيا شاعر، ولمن؟ وموكب الحسن، وفاتن المسيال، ثم طمس ذلك وكتبها (فاتن الأغصان)، ومذعورة.

٣ - شجون: وشمل قصائد: تائه، وأغنية تتمنع، وغضبة، وتساؤل، وصبارة، ودعاء، وعودة، وبعد الصمت.

٤ - أغاريد الرياض: وشمل قصائد: جلنار، والياسمينة، ومع البلابل، ومع الأغصان، وبين الرمل، وفراشة، وموعد العيد، ورجاء، وشفة غليظة، ووداع، ووشوشة، وصورة ملونة، وانتظار، وعهد، وسمراء، ومن فينا.

٥ - مع التيار: واحتوى على قصائد: لا تأس، ونشيد الجامعة، وحريق دار العرب، وتحية.

وذلك يدل على أنه كان ينوي تصنيف الديوان على هذا الشكل فمثلاً قصيدة «موعد العيد» كتب أعلى الصفحة (سمر وبيض)، وقصيدة (عهد) كتب أعلاها (من الغصن الأسمر) مما يشير إلى أنه كان ينوي نقلها إلى هناك، وجميع القصائد تنحصر ما بين عامي ١٣٦٣هـ و١٣٧٣هـ.

ثانياً - مذكرة متوسطة الحجم كتب عليها (الدفتر الأرزق):

ويبدو أنه صغّر حجمها ليتأتى له حملها في أسفاره، وقد كتب في أولها (أغصان جافة أو الأغصان التي كانت) وكتب فيها القصائد الآتية، مذيلاً كل قصيدة بالمكان والتاريخ:

مع الأغصان، والمرفأ الأخير، ودنيا شاعر، ولمن، وموكب الحسن، وفاتن الأغصان، ومذعورة، وأسمر، وتائه، وعودة، ومن فينا، وانتظار، وتساؤل، وحكاية حب، وبين الربى والسهول (جداول)، وحب وحدب، وغامضة، والموسيقي المتجول، ويا عيد، وبائعة

الشذى، وإرما، وشاعر وغصنان، وغصنان، وموكب، وموكب وشارع، وأبا تراب، وصدى عتاب، وبعد الصمت.

وينحصر تاريخ القصائد ما بين عامي ١٣٦٦هـ و١٣٨١هـ، ما عدا قصيدة (المرفأ الأخير) فتاريخها عام ١٣٩٣هـ.

ثالثاً - كراسة ثالثة، ويظهر أنها متأخرة، وقد كتب في أولها (أغصان):

وخلت كل القصائد من التاريخ ومن المكان، وقد نسخ فيها الشاعر القصائد الآتية:

مع الأغصان، ومذعورة، والهوى الأسمر، وعودة، وانتظار، ومن فينا، وغضبة، ومن وحي مسيل وجّ، وموعد العيد، وشفة، ووداع، ووشوشة، وبائعة الشذى، وحكاية حب، وبين الربى والسهول، وحب وحدب، وغامضة، وذات الرداء الأزرق، وحزني، ولغة.

ويلاحظ تكراره للقصائد في الدفاتر الثلاثة وتعديله عناوين بعضها، وظهر لي أن هذه الكراسة هي آخر تنقيح منه للقصائد.

رابعاً - ملفات في دار الرفاعي للنشر:

منها (ملف أشعاري)، وهو ملف كان الشاعر يحفظ فيه أصول قصائده أو صوراً منها، وما يوجه إليه من شعر ومن غيره سواء ردّ عليه أم لم يرد، ومنها (ملف الشعر) و(ملف التكريم) و(ملف رحلة إلى الشرق) و(بعض مذكراته) حيث ضمنها بعض شعره.

خامساً: الصحف والمجلات التي نشرت بعض قصائده:

منها ما احتفظت بصور منها دار الرفاعي، ومنها ما وجدته عندي، ومنها ما عدت إليها في المكتبات.

سادساً - ما وجدته عند بعض أصدقائه.

ترتيب الديوان

ضم القسم الأول من الديوان (الظلال) ما نشره الشاعر في حياته، وقد بقي كما رتبه الشاعر. أما القسم الثاني الذي سميناه «الأغصان» فقد رتبته بعد أن تم جمعه (بالشكل الذي سبق بيانه) كالآتي:

١- قمت بترتيب القصائد ترتيباً تاريخياً حسب التاريخ الذي ذيل به الشاعر القصيدة أو المقطوعة، وقد كان الشاعر يذيل شعره باسمه أو توقيعه وبمكان إنشاء الشعر وتاريخه، وما لم يكتب عليه تاريخ اجتهدت في تحديد تاريخه حسب ما أراه وأشرت إلى ذلك في الهامش.

٢ - ما لم أجد أصوله ووجدته منشوراً اعتمدت تاريخ نشره في الصحف والمجلات.

٣ - ما لم أجد له تاريخاً، ولم يهدني اجتهادي لشيء حوله وضعته في آخر الديوان.

أما لماذا انتهجت هذا النهج في ترتيب الشعر ترتيباً تاريخياً؟ فلأنني رأيت ذلك هو الأنسب، فهو يعطي تصوراً لحياة الشاعر ولسنه التي قال فيها الشعر، فالارتباط بين الشعر وعمر الشاعر مهم، ألم يقل عن شعره في مقدمة ديوانه ظلال ولا أغصان «لن أتواضع فأقول: إنه ليس شعراً، ولن أدعي - أيضاً - أنه شعر، ولكنه عمري، ويكفي أن أقول هذا بإيجاز حاسم».

تحقيق الشعر

لم يكن الشاعر يعنى بشعره كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ومن ذلك - وهو كثير - أنه كان يكتبه على الورقة الموجودة لديه عند إنشاء الشعر، فأحياناً يكتب على ورقة تقويم، وأحياناً على ظرف رسالة وصلته، وأحياناً على ورقة فندق أقام فيه، وأحياناً على ورقة طائرة امتطاها، وقد كتب بعض شعره بخط واضح في بعض الكراريس التي سبق وصفها في مصادر الشعر، وكان ذا خط جميل، ولكنه كان إذا جاءه الشعر كتبه على الورقة التي أمامه فيعدل حيناً، ويطمس حيناً، وقد

يكتب كلمتين إحداهما فوق الأخرى حيناً ليختار إحداهما فيما بعد، فإذا انصرف عن الشعر تركه على حاله، ولم ينقله بخط واضح، فهو يكتب الشعر لنفسه لا ليطلع عليه غيره، ولم يعن بجمع شعره وإعداده للنشر كما بين ذلك في مقدمة (ظلال ولا أغصان).

وقد عملت في تحقيق الشعر الآتي:

١ - ضممت الأصول أوالصور أو ما نشر في الصحف لكل قصيدة أو مقطوعة، واعتمدت آخر نسخة نقحها الشاعر، فإن وجدت خللاً عدت للأخريات، وهذا يكثر في شعره الذي لم ينقحه وتركه على حاله التي كتبها لأول مرة كما سبق تفصيله، وكذلك في شعر الصبا.

٢ - تحريت الدقة في نسبة الشعر إليه، واستبعدت ما لم ينسب إليه بصراحة، لأنه أحياناً يكتب شعراً أعجب به أو وجه إليه ولا يشير إلى شاعره، ويطلب حفظه في ملفات الشعر.

٣ - أثبت في المتن المقدمات النثرية التي كتبها لقصائده، أما تعليقاتي ففي الهوامش، وقد أنقل فيها نصاً له يتعلق بالقصيدة وأشير إلى ذلك.

٤ - أشرت في الهامش إلى الصحيفة أو المجلة إن كانت نشرت الشعر، فإن كانت الصحيفة أو المجلة هي المصدر، ولم أعثر على أصل بخط الشاعر وضحت ذلك.

٥ - ضبطت من الكلمات ما رأيته محتاجاً إلى ضبط وذلك في أضيق الحدود■

الهوامش:

١ - انظر قصيدة «تحية المعهد العلمي» ص ١٥٧ من الديوان المجموع.

٢ - انظر رحلتي مع التأليف للرفاعي/٦ وما بعدها، وديوانه ظلال ولا أغصان/٧.

٣ - الرفاعي وتواضع العلماء، الأربعاء الأسبوعي الصادر في ٢٩ ربيع الأول ١٤١٤هـ/١٧ (ملحق يصدر عن جريدة المدينة السعودية).

٤ - ذلك الاسم المستعار هو شاعر الأغصان.

٥ - ظلال ولا أغصان/٣ (ط/١).

٦ - المصدر نفسه/٤.

٧ - من مقال لي نشر عند صدور الديوان في صحيفة الجزيرة يوم السبت ٨ شعبان ١٤١٣هـ (٣٠ يناير ١٩٩٣م) العدد ٧٤٢٩ (زاوية دقات الثواني).

رجل جاد

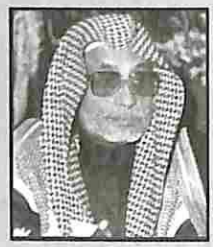

د. حسن الهويمل

كلما قرأت للرفاعي أو قرأت عنه، أو سمعته يتحدث بهدوء الواثق ورباطة جأش المؤمن تبدت لي شخصيته الوديعة الهادئة ونظراته العميقة المتزنة، إنه بكل المقاييس رجل جاد يضع الأمور كما يجب أن تكون. عرفته كاتبا ثر العطاء، ومتحدثا طلق اللسان ومؤلفا دقيق الكلام، وناشرا ينفق جهده وماله في سبيل الصالح العام.

الرفاعي والتراث

د. محمد سعد حسين

عندما يتحدث الرفاعي عن التراث يعمد إلى ربطه بالحديث ربطا لا يلحظه إلا من يعرف لباقة الرفاعي عندما يريد إقناع القارئ بما يذهب إليه، وذلك من طريق تصوير مواقف أصدقائه ورفاق الطلب من التراث، ومبلغ حرصهم على اقتناء كتبه والاستفادة منها، تقرأ ذلك فيما يكتبه مما يشبه المذكرات، وذلك حين تدعو المناسبة إلى مثل هذا...